الثقافة وصناعة التغيير .. نحو مجتمع حضاري

أ.د أحمد الهادي رشراش*

المستخلص

يعُدّ التغيير سنة من سنن الطبيعة، وضرورة ملحة في حياة الإنسان والمجتمع، وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور الثقافة والمثقف في صناعة التغيير لدى الإنسان والمجتمع؛ للوصول إلى بناء مجتمع حضاري شبه مثالي، يقوم على احترام الرأي والرأي الآخر، مع المحافظة على الموروث الثقافي والحضاري، من خلال إبراز علاقة المثقف بالمجتمع، وعلاقة الثقافة بالعولمة، ودور النضج الفكري والتعليم والإعلام في صناعة التغيير، وخلصت الدراسة إلى وضع مقترحات للوصول إلى تحقيق الهدف.

الكلمات المفاتيح: الثقافة– المثقف– صناعة – التغيير– مجتمع– الحضارة– الأنا والآخر– العولمة.

Abstract

Change is considered a law of nature, and an urgent necessity in human life and society. This study aims to highlight the role of culture and the intellectual in making change for humans and society. To reach the building of an almost ideal civilized society, based on respect for the opinion and opinion of others, while preserving the cultural and civilizational heritage, by highlighting the relationship of the intellectual to society, the relationship of culture to globalization, and the role of intellectual maturity, education, and media in making change. The study concluded by developing proposals. To reach the goal.

Keywords: culture - the intellectual - industry - change - society - civilization - the self and the other - globalization.

المقدّمة:

لم تَعُدْ الثقافةُ في المجتمعات المتقدّمة –اليوم– عنصرًا هامشيًّا، أو مجرّد ترف فكريّ، تمارسه نخبةٌ من المبدعين، أو تعيشه شريحة من المثقفين، أو تنفرد به طائفة من المفكرين، وإنّما صارتْ عنصرًا مهمًّا في النمو الاقتصادي، وأصبحتْ رافدًا رئيسًا من روافد صناعة تغيير الواقع الاجتماعي والسياسي والحضاري لتلك المجتمعات؛ لذا نالت الثقافة مكانة مرموقة، وحظيت بمنزلة رفيعة، وصارت

* أ.د أحمد الهادي رشراش، عضو اللجنة العلمية الاستشارية بالمركز القومي للبحوث والدراسات العلمية، طرابلس – ليبيا.

قوة فاعلة في تغيير الأفراد، وتطوّر المجتمعات، وباتت عنصرًا مهمًّا من عناصر التنمية المجتمعية، وباعثًا رئيسًا من بواعث التعايش السلمي؛ فعُنيت تلك المجتمعات بالثقافة والمثقفين، ورصدتْ الميزانيات الكبرى؛ لتسهم الثقافة بشكل فاعل في التنمية المجتمعية الشاملة، والنمو الاقتصادي، والتعايش السلمي.

ومن المؤسف – حقًّا – أنْ نجد عكس ذلك في مجتمعاتنا العربية، بشكل عام، وفي مجتمعنا الليبي بصورة خاصة، فالثقافة تقع في آخر اهتمامات كثير من الأفراد، وبعض الحكومات، هذا إنْ كان هناك اهتمامٌ بها أصلًا، والمثقّف العربي يعاني التهميش، ويقاسي مرارة الإهمال؛ لذلك فنحن في حاجة إلى ثورة ثقافية؛ لأنّ "الثقافة بصورتها المستقبلية غائبة إلى حدّ ما عن الاهتمامات الرسمية والشعبية على السواء، ولذلك أسبابه الكثيرة، بيد أنَّ أهم الأسباب يعود إلى عدم الوعي بالمألوف، وعدم استيعاب طبيعة التغيرات الدولية، وعدم العناية الكافية بعلاقة التنمية الشاملة بالثقافة"[1]؛ لذا فإنّنا نحتاج إلى تطوير الخطط، وتحديث البرامج، وتغيير سياساتنا؛ لأنَّ" السياسات الثقافية الحالية، وإن كانت قد استجابتْ لبعض التصوّرات المستقبلية، فهي غير كافية؛ لأنها تستند إلى تصوّرات عامة، تحتاج إلى تحديد، وبلورة أكثر"[2].

وقد دقّ بعض الكُتّاب العرب ناقوس الخطر لأزمة الثقافة في دولته، ويمكن تعميم ذلك الطرح الذي طرحه على الدول العربية كلها، لتشابه الواقع المعيش بينها، مع الاختلاف النسبي بين دولة عربية وأخرى "هناك ما يشبه الإجماع، بين أدبائنا ومثقفينا ورجال الفكر والسياسة، على أنّ الوضع الثقافي ببلادنا، يجتاز محناً خطيرة، وأزمات قاسية، تخضعه لسلبيات وأنواع من التردّي والهبوط"[3]، ولا شكّ في أنّ هذا الواقع ينطبق على الدول العربية جميعها، لا على تونس، دولة الكاتب، فحسب.

وإذا كانت الثقافة، كما عرّفها تيلور "هي ذلك الكم المركّب من المعارف، والعقائد والفنّ، والأخلاق، والقانون، والأعراف، وكلّ ما اكتسبه الفرد، بوصفه عضواً في مجتمع ما"[4]؛ فإنها، لا شك،

1- ناطوريه، علاء الدين: العولمة وأثرها في العالم الثالث، عمان- الأردن، دار زهران،2001م، ص126.

2- المرجع السابق، ص126.

3- السعدي، أبوزيان: في غياب السلطة الفكرية، سوسة- تونس، دار المعارف، 1990م، ص78.

4- نقلًا عن: حسين، رهبة اسودي، المثقف والسلطة في العراق 1921- 1958 دراسة اجتماعية سياسية، بغداد- العراق، وزارة الثقافة، ط (1) 2013م، ص14،13.

الأساس المتين للتنمية المجتمعية، والتعايش السلمي، والمثقّف هو المحرّك الرئيس لذلك، فهو "الإنسان المنخرط – بطريقة أو بأخرى– في عملية إنتاج الوعي"[1].

إنّ صناعة التغيير في مجتمعنا العربي تمثّل إشكالاً كبيرًا؛ لأسباب عدة، منها غياب المثقف، وعزلته، وابتعاده عن إحداث التغيير في المجتمع، وعقدة الأنا والآخر التي يعيشها المواطن العربي، وغياب الوعي بالتغيير وأهميته، والخوف منه أحيانًا، لأسباب دينية، أو اجتماعية كالعادات والتقاليد؛ وبما أن التغيير ضرورة حياتية للوصول إلى مجتمع حضاري شبه مثالي، فما السبل لإحداث هذا التغيير؟ وما دور الإعلام والإعلام في صناعته؟ وهل يعني التغيير أن ننسلخ من جلدنا ونرتدي ثوبًا آخر؟ أو أننا نصنع التغيير مع الحفاظ على موروثنا الثقافي والحضاري؟

- **المثقف العربي والمجتمع:**

لا يخفى مدى الفجوة الكبيرة، والهوة العميقة بين المثقف العربي والمجتمع، فما ينتجه المثقف العربي يظل – غالباً– حبيس جدران قاعات الملتقيات الثقافية، أو بين دفتي كتبه المركونة على رفوف المكتبات، في الجامعات، والمدارس، والمؤسسات، والبيوت، ولا يكاد يقتنيها إلا جزءٌ بسيط من النخبة المثقفة نفسها، فللأسف نحن العرب لا نقرأ كثيراً، رغم أننا أمة (اقرأ)، فأول كلمة أنزلها الله على رسول الهدى، نبينا محمد – صلّى الله عليه وسلّم– هي كلمة (اقرأ) ناهيك عن الآيات التي تدعو إلى طلب العلم، وتمدح العلماء، في القرآن الكريم.

والمثقّف العربي –أيضاً– رغم إهماله، وتهميشه، وعدم دعمه، ليس مُبرّأً من التقصير، فهو إما أن يعيش في ترف فكري، وإما أن يتقوقع بين جدران إحباط نفسي؛ لذلك وجب العمل على تنبيهه إلى مسؤوليته التاريخية والحضارية في التغيير، والتحديث، والتنمية، وعلى المجتمع أنْ يتيح له المنزلة المرموقة، والمكانة اللائقة به، وأنْ يوفر له احتياجاته، وأنْ يسهّل عليه نشر منجزه؛ لكي يبدع، وينتج، ويسهم في التغيير والتنمية، والتعايش السلمي، بما يبثه في أعماله الإبداعية من فكر يهذّب النفوس، ويثري العقول، ويلفت الأنظار إلى التأمّل في القضايا المصيرية، وينبّه إلى ما ينخر في جسد المجتمع

1– أبو زيد، نصر حامد: الخطاب والتأويل، الدار البيضاء– المغرب، بيروت– لبنان، المركز الثقافي العربي، ط (1) 2000م، ص15.

من انحراف، وفوضى، وأفكار هدّامة، ورؤى متطرفة، وينشر ثقافة التسامح، والتعايش السلمي، وتقبّل الآخر، ولا يبقى دوره مقتصراً على الاشتراك في بعض الملتقيات، والتظاهرات الثقافية النخبوية، التي صارت محدودة جدّاً اليوم، هدفها إشباع رغبة المبدع في البوح بما لديه أمام تلك النخب "أما أن يكون وراء تلك التظاهرة ما ينفع ويبقى، يخصب الذاكرة، ويرقى بالأحاسيس والغرائز إلى مستوى التمدّن والتحضّر، فتلك أمور لم تخطر على أحد ببال"[1].

- **الأنا والآخر وصناعة التغيير:**

مَنْ الأنا؟ ومَنْ الآخر؟ وما الصلة بينهما؟ وما علاقتهما بصناعة التغيير؟

الأنا هي (نحن)، هي ذاتنا بما تملكه من فكر، وثقافة، وموروث، ومقدّسات، والآخر هو الوافد المغاير لنا، وعلاقتنا – نحن العرب – بالآخر، تختلف من شخص إلى آخر، فبعضنا لا يتقبّل الآخر، ويُعرِض عنه، إلى حدّ النفور والعداء، أحياناً، وبعضنا الآخر يتقبّل الآخر، إلى درجة الانبهار به، والارتماء في أحضانه، أحياناً، ويحاول تقليده في كل شيء [2]، وكلا الطرفين – في نظرنا – يجانب الصواب، فعلاقتنا بالآخر ينبغي ألا تكون علاقة رفض قاطع له، ولا معادٍ لثقافاته، معتدٍ على مقدّساته، ولا علاقة قبول له إلى درجة الارتماء في أحضانه وتقليده في كلّ شيء، وإنّما ينبغي أنْ تكون علاقة قبول مشروط بعدم المساس بمقدّساتنا وأصالتنا، وثقافتنا، وموروثنا الحضاري، مع احترامنا – أيضاً– لثقافة الآخر ومقدّساته، وفتح آفاق التعاون، وتبادل الآراء والمنافع، وتحقيق التعايش السلمي معه، بعلاقة الندّ للندّ.

إنّ الفكر العربي ليس فكراً منغلقاً، ولا متقوقعاً، بل هو فكرٌ مرنٌ، قابلٌ للانفتاح والتأثر والتأثير، بحسب الشواهد التاريخية؛ إذ "يمتاز الفكر العربي بالحيوية، فهو يرفض الجمود والانحسار مذ كان فكراً، وهو متفتّح على الآفاق الواسعة، لا ينكمش، ولا يخشى الانغمار؛ لأنّ الذين حملوا هذا الفكر كانوا

1- السعدي، أبوزيان: مرجع سابق، 1990م، ص78.

2- يُنظر: الصعيدي: الذات والآخر فصول في الأعلام والقضايا والإبداع، دار ولي العهد، 2004، ص5،6.

جوّالين منذ البداية... فتعرّفوا على جيرانهم، واجتازوا البحر شرقاً وغرباً، وجاء الإسلام؛ فدفع بهم إلى آفاق أوسع، في الزمان والمكان، وفي الفكر أيضاً"[1].

وعلى الرغم من ذلك؛ فإنّ إشكالَ الإنسان العربي والمسلم اليوم مع الآخر، تُعَدُّ من أكبر الإشكالات الثقافية، ومن أبرز الخلافات الفكرية، ومن أعمق الصدامات الحضارية، في العالم، وهذا يعود بعضه إلى إشكالية في الفكر العربي، ويرجع بعضه الآخر إلى نظرة الآخر المشوّهة للعرب عامة، وللمسلمين بشكل خاص. أما ما يتعلق بالفكر العربي، فهو النظرة العدائية للآخر، الممزوجة بنظرية المؤامرة، التي تصوّر الآخر عدوّاَ يتربّص بنا، ويحيك لنا المؤامرات، اعتماداً على الخطاب المنبثق من الهُوية، وذلك أنّ هناك نوعين من الخطاب "وهما الخطاب المتمركز على الهُوية، والخطاب العقلاني، خطاب الهُوية لا يعترف إلا بوجود الذات، ويعدّ ما سواها مجرّد مواضيع وأدوات لتوكيد هذه الذات، أما الخطاب العقلاني فإنه يتواصل مع الذوات الأخرى بوصفها ذوات لا تقل حقيقة وأهمية عن ذواتنا"[2]، ولا ريب في أننا اليوم بحاجة إلى صناعة التغيير، بواسطة الثقافة، تغيير نظرتنا وفكرنا وخطابنا، من خطاب الهُوية، إلى الخطاب العقلاني "فخطاب الهُوية –كما أسلفنا– خطاب إيديولوجي بامتياز، وعلينا الانتباه دائماً إلى أنّ هذا الخطاب لا يصلح البتة في إرساء أي حوار مع الآخر؛ لأنّ الآخر هو أيضاً متمترس حول خطاب هويته بالضرورة"[3]، فالآخر يصب الإنسان العربي والمسلم في قالب واحد (الإرهاب، الكسل، القذارة، اضطهاد المرأة ...)[4].

وقد زادت حدّة هذه النظرة العدائية للعرب والمسلمين، بعد أحداث سبتمبر 2001م في الولايات المتحدة الأمريكية، وما صاحبها من توجّهها نحو ما يعرف بالحرب ضد الإرهاب، التي تقبلتها البشرية بأنها حرب على الإسلام، بوصف الفاعلين للتفجير الإرهابي، محسوبين على بعض التيارات الإسلامية المتشدّدة، رغم أنّ الإسلام منهم، ومن أفعالهم الإرهابية، براءٌ.

1- غلاب، عبد الكريم: الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات، ليبيا – تونس، الدار العربية للكتاب، 1977م، ص5.

2- ممدوح، مجدي: إشكالات فلسفية معاصرة، بغداد، العراق، وزارة الثقافة، ط (1) 2013م، ص11.

3- المرجع السابق ص11.

4- يُنظر: حمود، ماجدة: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، مارس 2013م، ص9.

وعلى الرغم من روح التسامح التي يدعو إليها الإسلام، وانفتاح الإنسان العربي والمسلم على الآخر، وانسجامه مع ثقافات الشعوب الأخرى، وَجَدَ الإنسان العربي والمسلم نفسه مضطراً للدفاع عن نفسه من تهمة الإرهاب التي أُلصقتْ به "ومع هذا التفتح، وهذه الروح السمحة، في التعامل مع الثقافة الإنسانية بعامة، والتفاعل معها، فقد اتهمنا بالتعصّب والتقوقع، والتحجّر، داخل إطار موروثنا الثقافي القومي"[1].

- **ثقافة التغيير والنضج الفكري**

إنّ صناعة التغيير تحتاج إلى وعي ثقافي، ونضج فكري، فكلمّا ازداد الإنسان نضجاً فكريّاً، ارتقى بثقافته، وتعمّق وعيُهُ بنواميس الحياة، وازداد تقبُّلُهُ الآخرَ، وقبولُهُ الاختلافَ، واحترامُهُ الرّأيَ المغايرَ لرأيه، فما يراه شخصٌ ما جميلاً، قد يراه غيرُه قبيحاً، وما يراه قبيحاً قد يراه غيرُه جميلاً، فالأذواق تختلف، والآراء تتضارب، وهنا يتكشّف مدى النضج الفكري، بتقبّل الاختلاف في الرأي من عدمه.

ينبغي للإنسان العربي والمسلم، أنْ يدرك أنّ الاختلاف سنة من سنن الله –سبحانه وتعالى– في خلقه، وآية من آياته **(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ)**[2]، أباحها حتى في اختيار المعبود، وهو بديع السموات والأرض، وربّ الكون، ومالك كلّ شيء، فترك للإنسان حرية اختيار دينه **(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)** [3]، وأمر رسوله – صلّى الله عليه وسلّم– بعدم إكراه الناس على اختيار دينهم، أو إجبارهم على الدخول في الإسلام **(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)**[4]، واستنكر أن يتمّ إكراه الناس على الإيمان **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)**[5]، كما بيّن لرسوله – صلّى الله عليه وسلّم– أنّه غير مسئول عن توفيق الكافرين للهداية؛ بل عليه البلاغ المبين، والهداية تكون من عند الله –سبحانه وتعالى– لأنّه اختص نفسه – سبحانه– بهدي من يشاء إلى دينه **(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ)**[6]، فمهمة النبي –

1– مليطان، عبد الله: قضايا وموضوعات، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط (1) 1998، ص9.
2– سورة الروم، الآية 22.
3– سورة الكافرون، الآية 6.
4– سورة البقرة، من الآية 256.
5– سورة يونس، الآية 99.
6– سورة البقرة، الآية 272.

صلّى الله عليه وسلّم– تبليغ الرسالة، أما الهداية فهي لله – سبحانه وتعالى– وحده، وهذا درس لكلّ متطرّف، يُصنّف الناس، ويحاسبهم باسم الدين، هذا فيما يخصّ الدين والعقيدة، فكيف بالاختلاف حول رأي دنيوي، كجمال امرأة أو قبحها، أو روعة قصيدة شعرية أو رداءتها، أو قبول رأي سياسي أو رفضه، أو غير ذلك.

بالثقافة نستطيع تغيير جدلية الأنا والآخر، من صورة نمطية العداوة والمواجهة، إلى صورة الاحترام والتعايش السلمي، إنّ العالم بحاجة لثورة ثقافية وفكرية لكي "يتحوّل الاختلاف إلى رحمة؛ فيؤسّس لثقافة، ينفتح فيها الإنسان على أخيه الإنسان، ويحترم ما يميّزه، خصوصاً حين يُتعرّف على المختلف، الذي يغني العقل البشري، ويبث الحيوية في العلاقات الإنسانية، كما يتبين كيف يتحوّل الاختلاف إلى نقمة، حين يكون الهدف إهانة الآخر المختلف وإقصاءه، لكي تؤكّد الذات استعلاءها، حيث ترسم في هيئة من يمتلك الحقيقة المطلقة، وبذلك يقرأ الآخر قراءة مغلقة على قول واحد، يرسم صورة مشوّهة له؛ فتشيع ثقافة الكراهية"[1]رهان الثقافة في صناعية التغيير ينبغي أن يطال قضايا عديدة، أبرزها إعادة النظر في تقبّل الآخر، والتعامل معه، ولا يعني ذلك هدم حضارتنا، ونبذ ثقافتنا العربية، والتخلّي عن أصالتنا وموروثنا وحضارتنا.

- **الثقافة والعولمة وصناعة التغيير:**

رغم تعدّد تعريفات العولمة، فإنّها في المجمل تعني "غلبة الطابع العالمي أو الكوني على الظواهر والنشاطات الفكرية والعلمية، بما يسمح بوصفها بأنها ظواهر ونشاطات عالمية أو كونية"[2]، فقد بات العالم اليوم قرية صغيرة منفتحة على بعضها، بفضل التطور التقني والثورة التكنولوجية، فما يحدث في بقعة ما من الأرض يُذاعُ خبره فوراً في العالم أجمع "ويُعبّر عن هذه التحوّلات وتكاملها بتعبير القرية الكونية Global Village الذي يرمز إلى حالة التكامل والاندماج بين أطراف العالم اقتصاديّاً، ومعلوماتيّاً، وثقافيّاً، حيث تتوارى الحدود والحواجز الجمركية، والثقافية، والمذهبية بين مكوّنات الوجود

1– حمود، ماجدة: مرجع سابق، ص9.

2– الطعان، عبد الرضا حسين، وآخرون: إشكالية السلطة في تأمّلات الفكر الغربي عبر العصور، بغداد – العراق، وزارة الثقافة، ط (1)2012م، ص510.

الإنساني"[1]،كما اغتنمت الدول الكبرى والصناعية العولمة لنشر ثقافاتها، وتنمية اقتصادها "العولمة في مرحلتها المعاصرة تقوم على القدرة المزدوجة الثقافية الاقتصادية على التأثير في حياة الآخرين، من دون الحاجة لاحتلالهم عسكريّاً واستيطانيّاً، كما كان يحدث في السابق"[2].

ولا نتبنّى هنا العولمة بشكل عام، ولا ارتباطها بالنظام السياسي العالمي الجديد، وما يسعى إليه من الهيمنة والسيطرة، ومحو ثقافات الأمم الأخرى، وإنّما نرمي إلى الانفتاح على الآخر، الأمر الذي بات أمراً واقعاً، وصار التعايش معه لزاماً، في إطار التعاون، والتكامل والاحترام المتبادل، من دون المساس بالمقدّسات، وإن كان هناك من يرى ضرورة الانضواء تحت النظام العالمي الجديدة، بوصف أنّ أيةّ "دولة لا يمكنها الاحتفاظ لوقت طويل بأوضاعها الداخلية، أو علاقاتها الخارجية بالشكل الذي هي عليه، إذا بقيت خارج نطاق عمل مبادئ النظام الدولي الجديد وقوانينه، أو تعارضت معها، وذلك يفرض على كل الدول التوافق مع هذا النظام والاندماج فيه، إن عاجلاً أو آجلاً، طوعاً أو كرهاً"[3]، فإنّنا نؤكّد ألا يطال ها الاندماج التعدّدية الثقافية، والتمسّك بالأصالة، والموروث الثقافي، والحضاري، والمقدّس الديني.

إنّ صناعة التغيير ليست بالأمر السهل ولا الهيّن، فهي تحتاج إلى ثقافة جديدة، ووعيٍ مختلفٍ، ينفتح على العالم، ولا ينغلق على نفسه "ولا شك في أن عصر المعرفة ما بعد الحداثي الذي نشهده في العقود القليلة الماضية، قد أنتج مفهوماً جديداً للوعي الفلسفي، امتلك خاصية انتشارية في حقول الحياة المختلفة، يمكن أنْ نصطلح عليه (الوعي الواحد المتعدّد) هذا الوعي الذي يدرك معنى الإحساس بالذات، والاستشعار بها في معرفة الآخر؛ لأنّ الذات لا تكتمل إلا من خلال الآخر (المتعدّد)"[4].

ولا ننكر اليوم مدى تأثر الثقافة العربية بالثقافة الغربية في إنتاج أهم جنس من الأجناس الأدبية، ألا وهو الرواية، التي لم تُعرف بشكلها الحالي في الحضارة العربية، بل وفدت إليها من الثقافة

1- وهدان، عمرو خاطر عبد الغني، العربية والعولمة، معالم الحاضر وآفاق المستقبل في ضوء الثقافة العربية والهوية الإسلامية، الإسكندرية، حورس، 2013م، ص16،15.

2- الطعان، عبد الرضا حسين، وآخرون: مرجع سابق، ص521.

3- المرجع السابق، ص528.

4- صالح، بشرى موسى، بويطيقا الثقافة. نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي، بغداد- العراق، وزارة الثقافة، (1) 2012م، ص6.

الغربية، وصارت الجنس الأدبي الأبرز عندنا، وربما تفوّقتْ على الشعر ديوان العرب، كما "شهد دور المثقف تطوراً كبيراً من خلال الاطلاع، والاتصال بالثقافات العالمية وتياراتها، وما تركته من أثر في نتاجهم، ورؤيتهم الثقافية التي أضحت أكثر نضجاً"[1].

- **الحضارات: صدام أم تلاقح؟**

تُعرّف الحضارة تعريفات عدّة، من بينها، هي "نتاج بشري مرتبط بالجهد الإنساني، والعمل الدؤوب، والزمن التاريخي..."[2]، وهي عند صمويل هنتنجتون: "الكيان الثقافي الأوسع الذي يضمّ الجماعات الثقافية، مثل القبائل، والجماعات العرقية، والدينية، والأمم"[3].

ويُنسب مصطلح (صدام الحضارات) إلى صمويل هنتنجتون، الذي ذهب إلى أنّ "الصراع في العالم الجديد، لن يكون أيديولوجياً، أو اقتصاديّاً، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر، والمصدر الغالب للصراع ثقافياً"[4].

وقد تغيّر الصراع اليوم، فلم يعد كما كان في السابق، صراعاً "بين الملوك والأباطرة، ثم بين الشعوب، ويقصد الدول القومية، ثم بين الأيديولوجيات، ولكن بعد الحرب الباردة سينشب الصراع بين الحضارات، مع حلول النظام العالمي الجديد"[5]، وقد برّر هنتنجتون، أسباب هذا الصراع بقوله: "فما يهم الناس ليس هو الأيديولوجية، أو المصالح الاقتصادية، بل الإيمان، والأسرة، والدم، والعقيدة؛ فذلك هو ما يجمع الناس، وما يحاربون من أجله، ويموتون في سبيله"[6].

فهل ستصنع الثقافة التغيير في الفكر العربي والعالمي، فنرى صراع الأديان يختفي، ويُترك للإنسان حرية اختيار دينه، وممارسة طقوسه وشعائره، بكل حريّة، ونشاهد صدام الحضارات وصراعها يتلاشى، ويحل محلّه تكامل الحضارات، وتناغمها، وتلاقحها، وينتشر التكافل بين الدول، ويزداد التعاون

1- حسين، رهبة أسودي: مرجع سابق، ص389.

2- مؤنس، حسين: الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 237، 1989م، ص15-16.

3- هنتنجتون، صامويل: صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، سطور، ط (2) 1999م، ص10.

4- المرجع السابق، ص10.

5- المرجع السابق، ص 10.

6- المرجع السابق، ص 10.

بين الناس، وتتوجّه الدول صوب التلاحم بعضها مع بعض، ويعمّ التعايش السلمي فيما بينها؛ لأجل سعادة البشرية ورخائها؟!

- **صناعة التغيير ضرورة حياتية:**

لم يعد الجمود اليوم سلاحاً مُجدياً، ولا الانغلاق حصناً منيعاً، في ظل الثورة المعلوماتية الخطيرة السريعة، فمن بين أهم أهداف العولمة العمل على تنميط الثقافة العالمية، حيث صارت الموضة، والموسيقى، والأفلام السينمائية، وغيرها، عابرة للأوطان، بل خارقة للمنازل وغرف النوم، وبذلك تزاحم الثقافات الواردة، الثقافات المحلية، وقد تقضي عليها بمرور الزمن.

لقد آن الأوان، وحان الوقت، لإزاحة الغبار عن المشهد الثقافي العربي، والبحث عن طرح جديد لمضامين الثقافة، يتناسب مع الدور الجديد الذي تطّلع به في تنمية المجتمع، وبعث روح التعايش السلمي فيما بيننا، وفيما بيننا وبين الآخر، وترسيخ مبدأ حوار الفكر والثقافة بين مكوّنات الثقافة العربية المختلفة من ناحية، وبينها وبين الثقافات الأخرى من ناحية أخرى، عن طريق الانفتاح على ثقافات تلك الشعوب، لترسيخ مبدأ التفاهم والتسامح وقبول الآخر، من دون إغفال خصوصياتنا، وموروثنا الثقافي، كما أننا مطالبون –اليوم– أكثر من أيّ وقت مضى، برفع الغبن عن المثقّف العربي، وإخراجه من العزلة التي يعيش فيها؛ والقوقعة التي يحبس نفسه داخلها؛ لكي يسهم في بناء نهضة جديدة، تكون الثقافة، أساسها، والمثقف عمادها، ويقوم بإنتاج المعرفة ونشرها "فقد تتكاثر المعرفة والأدب والفن، كما يتكاثر النسل والمال والبناء"[1]، مع ضرورة إدراك أنّ صناعة التغيير تحتاج إلى وعي، يقود منظومة المتغيرات الفكرية والفلسفية العالمية، في عصر الانفتاح التقني الحديث.

- **التعليم وصناعة التغيير:**

من الطبيعي أنّ ثقافة التغيير ليست خبط عشواء، ولا تأتي فجأة، ولا تكون دفعة واحدة، بل تكون عبر مراحل، ووفقاً لاستراتيجيات بعيدة المدى، وخطط منضبطة، ولاشك في أنّ التعليم يقوم بدورٍ

1– عبد الرحمن، طه: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدار البيضاء – المغرب، بيروت– لبنان، المركز الثقافي العربي، ط (1)، 1998، ص21.

بارزٍ في عملية التغيير، فالتلميذ يكتسب، عبر مراحل التعليم المختلفة، كمّاً كبيراً من المعرفة التي تحدّد نمط حياته؛ وتوجّه مسيرة توجّهاته، فإذا كانت مناهج التعليم تدعو إلى العنف، وازدراء الآخر، فإنّها ستنتج جيلاً متطرفاً عدائيّاً، وإن كانت تدعو إلى المحبة والتسامح؛ فإنّها ستقدّم جيلاً متسامحاً؛ لذلك وجب تطوير المناهج التعليمية والتربوية، بحيث تُنشر من خلالها ثقافة التسامح، ونبذ العنف، وتقبلّ الآخر، واحترام مقدّسات الأمم الأخرى، ومراعاة ثقافات المكوّنات الاجتماعية للمجتمع، واستيعاب المفهوم الحقيقي للمواطنة، وما يرتبط بها من حقوق، وما ينبثق عنها من واجبات.

- **الإعلام وصناعة التغيير:**

يقوم الإعلام بدورٍ بارزٍ في نشر الوعي الثقافي، وصناعة التغيير في المجتمعات، لاسيما في عصر التقنية الحديثة، والثورة المعلوماتية، التي جعلت العالم قرية واحدة صغيرة؛ فأصبح الإنسان يستطيع دخول كلّ بيوت العالم، في مختلف أنحاء الأرض، بتسجيل مرئي أو صوتي يقوم ببثه عبر وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي.

والإعلام يؤثر إيجاباً أو سلباً في صناعة التغيير، من حيث بث ثقافة التسامح، ونبذ العنف، والدعوة إلى برّ الوالدين، والمعاملة الحسنة للجيران، والأصدقاء، والزملاء، واحترام الإنسان، مهما كان عرقه، أو لونه، أو جنسه، أو دينه، وذلك من خلال برامج الأطفال ورسوماتهم المتحركة، وعلى العكس من ذلك، نجد ثقافة نشر العنف، والقتل، والحروب، من خلال الألعاب الإلكترونية الحديثة، التي صارت إدماناً للشباب، وبعض الأطفال، بل حتى بعض الكبار، توجّه تفكيرهم صوب العنف، وتشوّقهم للقتال وللحرب، وتحبّبهم في امتلاك السلاح واستعماله.

لذا؛ وجب على المؤسسات الدولية، والإقليمية، والعربية، التي تُعْنَى بالتربية والثقافة والعلوم أنْ تبذل جهوداً أكبر، بالتعاون مع الدول، والمجتمعات، للتشجيع على تبنّي ثقافة الحب، والخير، العدل، والمساواة، والتسامح، ونبذ ثقافة الحروب، والقتل، والدمار، والشر، والكره، والبغض، وذلك من خلال البرامج التعليمية والتربوية، والرسومات الكرتونية، والألعاب الإلكترونية، وكذا البرامج السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والترفيهية في وسائل الإعلام المختلفة.

- **مقترحات لصناعة التغيير:**

التغيير لا يكون بشكل عشوائي، كما أشرنا سابقاً، بل يحتاج إلى صناعة، بتضافر الجهود، وشحذ الهمم، ووضع الخطط والاستراتيجيات، والعمل على تنفيذها، ومتابعة إنجازها، وأرى –هنا– أنه من المفيد، أنْ نتبنى – بتصرّف– طرحاً لسياسات ثقافية، طُرح من أحد الكتاب بالأردن؛ للإسهام في صناعة التغيير ببلاده، ويمكن تعميمه على كلّ الدول العربية:[1]

1. تعميق الاعتقاد بقيمة هُوية الثقافة العربية الإسلامية، وإتاحة الفرصة لها لتحديث نفسها، والاستفادة بماضيها وتراثها، والتلاقح مع الحضارات الحديثة، وإخراجها من التقوقع والانغلاق على نفسها، ولا يعني ذلك ارتماءها في أحضان الغير، بل ينبغي ألا يتعارض التغيير مع الاعتزاز بالأصالة والموروث الثقافي والحضاري والمقدّس الديني.
2. العمل على ترسيخ تعدّدية حقيقية، تكفل حرية التعبير، واحترام الرأي الآخر.
3. بث قيم الحق والعدل والمساواة، ونشر ثقافة التسامح بين الجميع.
4. نشر ثقافة استخدام التكنولوجيا والتقنيات الحديثة؛ لتسهيل عملية التواصل.
5. تحفيز المبدعين على الإنجاز والفاعلية.
6. إعادة النظر في السياسات التربوية والتعليمية، والإعلامية، بما يحقّق الوعي الثقافي والتعايش السلمي.

وأضيفُ إليها ما يلي:

7. الاهتمام بالثقافة؛ والعمل على أنْ يكون لها دورٌ كبيرٌ وفاعلٌ في صناعة التغيير الحقيقي إلى غدٍ أفضل.
8. إقامة مشروع ثقافي عربي كبير، يكون تكامليّاً وشموليّاً، لا ينفصل عن القيم الدينية والمجتمعية والتربوية العربية والإسلامية، انطلاقاً من رؤية واضحة، وسياسات مدروسة، وبرامج حقيقية لصناعة التغيير الإيجابي، فبالثقافة تستنير العقول، وبذلك يتحقق التغيير.

1– يُنظر: ناطوريه: مرجع سابق، ص127.

9. الاهتمام ببرامج ثقافة الطفل، وإنتاج الأفلام الكرتونية الهادفة، وإعداد برامج ألعاب الأطفال الإلكترونية، بما يخدم الثقافة العربية والإسلامية، وينشر ثقافة التسامح، وتقبّل الآخر.
10. التشجيع على القراءة، والتحفيز على اقتناء الكتاب.
11. بناء جسور التواصل مع الأمم والمجتمعات الأخرى، في ظل التعاون، وتبادل المنافع والتعايش السلمي.

الخاتمة:

إنّ التغيير رغم أنّه ليس سهلاً، لكنه ليس بالشيء المستحيل، فالعالم العربي هو مهد الحضارات الدنيوية، ومنطلق الرسالات السماوية، ولدينا كلّ مقوّمات التغيير، وإمكانيات التطوّر، من الموارد المالية، والطاقات البشرية، ما يمكّننا من مجاراة العالم، ومواكبة سير الحضارة، وما ينقصنا هو التخطيط السليم، والإرادة والعزيمة. وإذ كنا نؤمن بأنّ الإصلاح ضرورة حياتية، تفرضها طبيعة العصر؛ فإننا نؤكّد أنّ التغيير ليس بالأمر السهل، ولا بالشيء الهيّن، ولا يؤخذ بالتمنّي – كما قال المتنبي– بل يحتاج إلا الغلاب، والإصرار، والتخطيط السليم، والعمل المنظّم، فلا مناص لنا من رسم خطة واضحة من قبل النخب الفاعلة في الوطن العربي، ونأمل أنْ يكون ذلك على طاولة أحد جداول أعمال المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) ووزارات الثقافة في الدول العربية.

المراجع

أبو زيد، نصر حامد: الخطاب والتأويل، الدار البيضاء– المغرب، بيروت – لبنان، المركز الثقافي العربي، ط (1) 2000م.

حسين، رهبة اسودي، المثقف والسلطة في العراق 1921– 1958م دراسة اجتماعية سياسية، بغداد– العراق، وزارة الثقافة، ط (1) 2013م.

حمود، ماجدة: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، مارس 2013م.

السعدي، أبوزيان: في غياب السلطة الفكرية، سوسة– تونس، دار المعارف، 1990م.

صالح، بشرى موسى، بويطيقا الثقافة نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي، بغداد– العراق، وزارة الثقافة، (1) 2012م.

الصعيدي: الذات والآخر فصول في الأعلام والقضايا والإبداع، دار ولي العهد، 2004.

الطعان، عبد الرضا حسين، وآخرون: إشكالية السلطة في تأمّلات الفكر الغربي عبر العصور، بغداد، العراق، وزارة الثقافة، ط(1)2012م.

عبد الرحمن، طه: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدار البيضاء – المغرب، بيروت– لبنان، المركز الثقافي العربي، ط (1)، 1998م.

غلاب، عبد الكريم: الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات، ليبيا – تونس، الدار العربية للكتاب، 1977م.

مؤنس، حسين: الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 237، 1989م.

مليطان، عبد الله: قضايا وموضوعات، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط(1) 1998م.

ممدوح، مجدي: إشكالات فلسفية معاصرة، بغداد، العراق، وزارة الثقافة، ط(1) 2013م.

ناطوريه، علاء الدين: العولمة وأثرها في العالم الثالث، عمان– الأردن، د ار زهران، 2001م.

هنتنجتون، صامويل: صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، سطور، ط (2) 1999م.

وهدان، عمرو خاطر عبد الغني، العربية والعولمة، معالم الحاضر وآفاق المستقبل في ضوء الثقافة العربية والهوية الإسلامية، الإسكندرية، حورس، 2013م.